مشهد

## ما جناه تقصيرنا في التعريف بالقضيّة

# لو أنّي رأيتُ كوفيةً فلسطينية في براغ

الانطباع العامّ هنا، في العاصمة التشيكية، هو قلّةُ اكتراث بالقضيّة الفلسطينيّة أكثر منه معاداة، شعورٌ بأنّها قضية بعيدة ومَجهولة، لأنّ العرب لم يُعبّروا عنها بالشكل الملائم الذي يُخاطب عقول التشيكيّين وقلوبهم ويُكسبهم تعاطفهم

**نجم الدين خلف الله**

عندما استَقْلتُ الطائرة في اتجاه العاصمة التشيكية براغ، أعلنت النرويج والسويد وإسبانيا اعترافها الرسمي بدولة فلسطين. خامرني مباشرة سؤالٌ حارق: ما موقف الجمهورية التشيكية حكومةً وشعباً من القضية الفلسطينية؟ هل ستؤثّر روح ميادين براغ ورمزية ثورتها المخملية التحرّرية في المزاج الشعبي والرسمي؟ وهل تدفع تلك الروح هذه الدولة فتُسارع، هي الأخرى، إلى الاعتراف بدولة شعب وأرض تُعاني مرارة الاحتلال منذ خمس وسبعين سنة؟

سرتُ في شوارع براغ، أتملّى روحها العميقة وأسترجع هتافات المتظاهرين. إلّا أنّ المدينة كانت، عشية ذلك اليوم، زاهيةً جَذلى، كأنّما تعيش مهرجان مشاهد وألوان وأصداء، مهرجان يُبهج العيون والآذان. فبين الفينة والأخرى، تمرّ مجموعة برزيّها وشاراتها الملوّنة، بدءاً من كوكبة من زُهبان التبت، في جلابيبهم البرتقالية، مرّوا وبأيديهم دفوف، ثمّ تتلوها جماعة من متسابقي سيارات رياضية قصيرة جدّاً تُذكّر بمركبات الحرب الأولى، وبعدها فرقة نُحاسية ترتدي الملابس السلافية التقليدية، ثم فريقٌ من الرسّامين وآخر من ممثّلين مقنّعين. ويتوالى العارضون زُرافات ووحداناً، يرتدون ملابس مُميّزة، حتى لا تكاد تمضي دقائق معدودة من دون أن يتمتّع الناظر والسامع بموكب جماعة تُدافع عن قضيّة أو تُذكّر بهوية.

لم أملك خيالي من أن يجنح، في تلك اللحظات، فيتصوّر فلسطينيات وفلسطينيّين يعتمرون الكوفيّة الخالدة ويرقصون الدبكة في تلك الشوارع أو يعبرون الساحة ولو في حُزن وصمتٍ بهدف أن يُعرّفوا، مثل غيرهم، بقضيّتهم العادلة. عُدت إلى طاولة المقهى سائلاً زميلي التشيكي عن أسباب غياب القضية الفلسطينية لدى الرأي العام.

أجابني بديهةً: «إنّ الانطباع العامّ هنا هو قلّةُ اكتراث أكثر منه معاداة، شعورٌ بأنّ القضيّة الفلسطينية بعيدة مَجهولة، لم يُعبّر عنها العرب بالشكل الملائم الذي يُكسبهم تعاطف الغير، أكثر منه رفض للعرب ولقضاياهم. الشعب التشيكي أقرب، في حياته اليومية، إلى المعضلة الروسية - الأوكرانية، لأنّ مهجّرين ولاجئين توافدوا من أكرانيا، البلد المجاور، فملأوا شوارعهم ومحالّ أعمالهم، في حين تظلّ الثقافة العربية قارّة مجهولة بعيدة، لا تحدّث عقولهم وقلوبهم بشكل مباشر».

لكنّ، عندما رأى محادثي عدمَ اقتناعي بهذا الجواب السهل، أضاف: «غالبية الشعب تُعارض وجهات الحكومة ولا تقبل بانحيازها الأعمى لإسرائيل. ولا يعكس هذا الانحياز الرؤية الغالبة لدى الجماهير، فما فعلته الحكومة ليس سوى استرضاءٍ لأميركا ومناكفة لروسيا، بل هو موقف غبيّ سيُثير حفيظة الحلفاء العرب والمسلمين، وسيجعل البلد يخسر العديد من الفرص الاقتصادية والثقافية مع الدول العربية».

أدركتُ صامتاً أنّ المسألة في جوهرها مسألة تواصل وعلاقات عامّة، تقتضي إتقان فنّ التعريف بالذات لدى الآخر، لا كما نودّ أن نُظهرَ نحن التزامنا، وإنّما بحسب المقولات التي تُقنعه وتمسّه في الصميم، لا تُخيفه ولا تعارض بشكل ضدّي ما دَرجَ عليه من المبادئ. وهنا تكمن الصعوبة، وهذا ربّما ما قصّر فيه العرب، ولا سيّما في مناطق لغوية وثقافية غير مألوفة لدينا مثل جلّ دول أوروبا الوسطى، كالمجر والتشيك وسلوفاكيا وغيرها. يُضاف إلى ذلك الحاجز اللغوي الذي يمنع العرب من الاستثمار في اللغة التشيكية، كما يمنع الناطقين بهذه الأخيرة من إتقان الضادّ والثقافة العربية المقترنة بها، مع أنّ الطرفَين سيجنيان الكثيرَ من المكاسب إن هُما كسرا هذا الحاجز وانفتحا أكثر بعضهم على بعض، علماً أنّ التشيكيّة، وهي من أصل سلافي، مثل لساننا لغةُ إعراب وحركات، تحكمها العوامل النحوية، وهو ما يوفّر عنصراً مُيسّراً لمعرفتها.

هذا التقصير هو ما جعل فلسطين وسائر رموز العروبة والإسلام غير مرئية في الفضاء العامّ بالشكل الكافي، باستثناء إشارات نادرة إلى مَطاعم «الكَباب» أو محالّ بيع الأكل الحلال التي يقصدها مسلمو البوسنة والهرسك، في غياب تامّ لرموز الثقافة والفنّ والآداب وتجاهُل مُحزّن لهذا المكوّن الذي يمكن أن يكونَ رافداً معرفياً لا يستهان به. ومع ذلك، لم أتمالك نفسي من استحضار أحد أبرع المستشرقين التشيكيّين: الويس موسيل (1868 - 1944)، الذي أتقن العربية الفصحى ومعها ثماني عشرة لهجة، وهو الذي عاشر البدو في فلسطين والأردن والمنطقة العربية الصحراوية، وهو من أوائل مَن رَسم خرائط دقيقة عن مناطق القبائل ودوّن عاداتهم ولهجاتهم بدقّة متناهية، مع التنصيص على أهمّيتها الاقتصادية. وقد نُشرت تلك الخريطة لدى «معهد المساحة العسكري النمساوي» عام 1906. إلّا أنه، ورغم علمه الجمّ، كان يعمل لصالح إمبراطورية النمسا - المجر، وكان يُساعد قادتها على إيجاد أسهل الطُرق للتفاعل مع الشرق، وهو ما يُظهر ولعاً استشراقياً ممزوجاً بالرغبة في الاستفادة من «كنوزه».

ثم عدتُ بذاكرتي أدراج الماضي القريب: فخلال الحقبة الشيوعيّة، كانت لتشيكوسلوفاكيا علاقاتٌ جيّدة مع الدول العربية ذات التوجّه القومي، وكان لها مواقف مناصرة لقضايانا. «بعد كسر الطوق السوفييتي والالتحاق بالمعسكر الغربي - أضاف زميلي - تُنوسيَ هذا الإرث الاشتراكي، بل صار كبش فداء توضع عليه كلّ شرور الراهن ونقائصه، وبات من الدارج لدى ساسة البلد ومثقّفيه الإنحاء باللائمة على الفترة السوفييتية بوصفها مصدرَ الشرور وسبب التخلّف. ولذلك يُسارع هؤلاء القادة أنفُسهم إلى تبنّي وجهة النظر الغربية، وليتهم عادوا، ولو للحظات عابرة، إلى تاريخهم القريب، لكانوا رأوا فيه مأساة فلسطينَ ماثلةً أمام ناظرهم».

تساءلتُ وأنا أستقلُّ طائرة العودة: كيف لا يعي هذا الشعب مأساة فلسطين وشعبها، وهو الذي تغيّرت، أو بالأحرى غُيّرت، خرائطُ بلده عدّة مرّات طيلة القرن الماضي، بل ومُحيت أصلاً من خريطة العالم ردحاً من الزمن وقُلّصت مساحاته وأُضيف بعضُها إلى دول أُخرى بفعل القوى المُهيمنة، ثم أُعيد توحيدها مع بلد آخر (سلوفاكيا) فقط حفاظاً على أديم الأرض حتى لا تبتلعه الدول المجاورة؛ ما يؤكّد أنّ الوعي بالأرض والغيْرَة على حدوده وبقاءه سالماً هي في أعماق الشخصية الجماعية لهذا الشعب، وهي بَوصلته. فكيف لا يقبلها لغيره من الشعوب التي تعيش نفس النكبة وبنفس الوعي منذ عقود؟

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

الشرطة التشيكية تُطوّق تجمُّعا في براغ منددا بالإبادة الجماعية في غزّة، 5 آذار/ مارس 2024 (Getty)

مسألة تواصُل تقتضي إتقان فنّ التعريف بقضايانا لدى الآخر

الشعب التشيكي أقربُ إلى المعضلة الروسية الأوكرانية

### تصفية استعمار

كيف لا يهتمّ هذا البلد، شعبا وحكومة، بالقضية الفلسطينية التي هي في الأساس قضية تصفية استعماري احتلالي، في حين أنّه كان أوّل مَن انتفض ضدّ الدكتاتورية السوفييتية وأساليب اضطهادها وعنفها؟ وهو عين ما تمارسه اليوم «حكومة الحرب» الإسرائيلية ضدّ الشعب الفلسطيني الأعزل في قطاع غزّة منذ أكثر من ثمانية أشهر؟ ألا يمكن أن يَرَوا فيها تاريخهم وجزءاً من معاناتهم حين احتلّهم هتلر والحقهم بالرايخ؟

إطلالة

## عن الحاجة إلى سماع الصوت البشري الخاصّ

# في سجون اللّاوعي

لا بدّ من الانتقال من اللّاوعي الموروث والجامد إلى آخر قائم على تجربة الفرد مع الأشياء والنصوص، بعيداً عن ضغط العادات والتقاليد

**عاطف الشاعر**

يتحدّثُ عالم النفس السويسري كارل يونغ، في كتابه «ذكريات وأحلام وتأملات»، عن سيرته وتجربته وأفكاره خلال عقود طويلة عاشر فيها فرويد، ومؤسّسين آخرين لعِلم النفس الحديث. ولعلّ النقطة الرئيسية في الكتاب تدور حول ما يُعرف باللّاوعي وتجلّياته المختلفة، سواء في حياتنا اليقِظة أو في حياة الأحلام.

ويُعدّ يونغ من الأوائل الذين تطرّقوا إلى اختلاف الوعي واللّاوعي ومعناهما في ثقافات مختلفة؛ فما هو وعيٌ وما يُولى بدرجة من الاهتمام في ثقافة ما قد لا يكون بالضرورة كذلك في ثقافة أُخرى، بل قد يكون تجلّياً لأنانية مفرطة أحياناً. ويعودُ الفضل في هذه الأفكار إلى أسفار يونغ في بلدان مختلفة كثيرة، بدأها من تونس ثمّ الهند والولايات المتّحدة وغيرهما. وربّما ما يُميّز الكتاب عن غيره، في تطرّقه لمسألة الوعي الشائكة، قدرةُ الكاتب على أخذ نفسه والقارئ عبر رحلة طويلة من التفكير وتقليب الأمور.

لغة الكتاب أشبه بمسرحية لا تنتهي فيها الأفكار والخواطر والحوادث، وهي مسرحيّة مُثيرة وغنيّة، ولا تخضع، مثل الكثير من السير الذاتية، للتقنين الذاتي؛ حيث التركيز على جانب شغلَ صاحب السيرة طوال حياته. يوجد هذا أيضاً، لكنّ أفكار يونغ عن الوعي واللّاوعي والأحلام تقترب من حواف اللّامعقول في تعاملها مع هذه المسائل وربطها بأشياء كثيرة، منها عالم الطفولة والتنشئة المُبكّرة، والتي لا يُمكن أن تصل نظريةً ما لتضمين كافّة تجلّياتها. الوعي الأوروبي قائمٌ على الفردية والتغلغل في مكنونات النفس لفهمها بمعزلٍ عن المجتمع وعاداته، وهو وعي خاصّ، وإن أخذ طابع العالمية، إذ أصبح الكثيرون يلهثون خلفه، بسبب افتتان بالثقافة الغربية التي تصاعدت فيها المعرفة والتفكير التحليلي والتطوّرات العلمية، بينما الثقافات الأُخرى، مثل الثقافة العربية، تبدو ثقافة استهلاك معرفي وعِلمي في أغلب الأحيان، وليست كما كانت في الماضي ثقافة إنتاج معرفي وعِلمي وثقافة اجتهاد. الوعي الأوروبي له تاريخ يتعلّق بتحطيم الأيقونات الغيبية خصوصاً، تجاه إدراك فردي وتجربة فردية، وبالتالي حياة فرديّة بكلّ ما فيها من وحدة ووحشة وأحياناً انهيارات نفسية متعدّدة الوجوه. ومع هذا، لا يُخفي يونغ نظرته الفوقية كإنسان أوروبي، عاش وبرز اسمُه في النصف الأوّل من القرن العشرين، وشهد تطوّرات كبيرة في العالم الغربي. ولكنّه، في الوقت نفسه، لا يُخفي قلقَه من تصاعد حدّة الفردية الأوروبية والكآبة المترتّبة عنها. وهكذا، يُنادي بفردانية مسؤولة؛ أي فردانيةٌ داخل المجتمع، من خلال تفاعُل ومسؤولية تجاه الآخرين. إنّها فردانية تعي ذاتها في الإطار المجتمعي والعالمي والكوني، وليست فردانية خلاص بمعزل عن المجتمع والعالم.

أين العالم العربي من كلّ هذه المفاهيم التي تبدو غير مهمّة، لكنّها في الحقيقة في صميم معنى أن يكون الإنسان إنساناً، أي أن يُسخّر الإنسان ما حوله لخدمته كفرد، وكمجتمع نواتُه الأفراد في آن واحد. ألأفت أنّ مسألة اللّاوعي لم يَجرِ الاهتمام بها كثيراً في الثقافة العربية، وذلك ربّما لحساسيتها وللرّيبة التي تعتري أيّ نظرة مختلفة عمّا هو مألوف لدى المجتمعات العربية، حيث تُثبّت «الأيقونات» وتدورُ حولها حياة الأفراد، ولا يجري التفكير كثيراً من خارجها، سواء تلك المتعلّقة بالدين أو بالعادات أو غيرهما. اللّاوعي هو المُسيطر على عالم الأفراد في العالم العربي، ولا مفرّ للفرد منه. الحياة تحت ظلال «الأيقونات» من دون أسئلة، ومن دون سماع الصوت البشري الخاصّ، والتجربة البشرية الخاصّة هي حياة لا يمكن إلّا أن تُكرّس اللّاوعي وتورّث اللّاوعي. وللّاوعي نصيبٌ من كلّ البشر حيثما كانوا، لكن لا بدّ من الانتقال من اللّاوعي الموروث والجامد إلى اللّاوعي الفردي القائم على تجربة الفرد مع الأشياء والنصوص وتفكيره الذاتي فيها، بعيداً عن ضغط العادات والتقاليد، أيّاً كان مصدرها، ولا يمنع ذلك أن يكون الفردُ منخرطاً في مجتمعه، وأن يمارس الدين والطقوس والتقاليد داخله. ولكنّها مسألة نسبيّة تتطلّب وعياً أكثر يتجاوزُ سجن الفرد داخل المجتمع. وتلك من علل العالَم العربي الكثيرة التي لا يُمكن المضيّ إلى الأمام من دون تجاوُزها.

لا يُمكن المضيّ قُدُماً من دون تجاوز مسألة اللاوعي

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

«المعاطف»، لـ ياسمينة نيستت، مواد مختلطة على قماش، 2023 (من معرض «الأمل في زمن الديستوبيا» المُقام حاليا في بيروت)

معرض

## وقائع سُلطوية قاومتها الشعوب والفنون

# إصرارٌ على «الأمل في زمن الديستوبيا»

تستلهم أعمال المعرض واقع الممارسات السلطوية في يومنا الراهن، كالاقتصادات الرأسمالية العالمية والتدهور البيئي، وأُخرى مقاومة لها

بيروت ـ **العربي الجديد**

«الأمل في زمن الديستوبيا»، عنوان معرض جماعي مُقام حاليّاً في «مؤسّسة دلّول للفنون» ببيروت، ويتواصل حتى الخامس عشر من آب/ أغسطس المُقبل، حيث تُستلهَم رؤية المجموعة المقترحة من ثيمة أدبية سبق أن قدّمتها روايات مثل «1984» لجورج أورويل و«عالم جديد شجاع» لألدوس هكسلي، مع إضافة أبعاد أُخرى عليها مأخوذة من واقع الممارسات السلطوية في يومنا الراهن، كالاقتصادات الرأسمالية العالمية والتدهور البيئي، والصناعات التقنية وقوّة الشركات، والمجمّعات العسكرية، وأجهزة المراقبة.

تعكس الأعمال مفهوم التحوُّل النيوليبرالي وارتداداته الاستهلاكية على مستوى العالَم، إلى جانب نقلها خصوصيّة الواقع العربي في العقد الثاني من الألفية الثالثة، والذي شهد عدداً من الانتفاضات الشعبية التي قُمعت بعنف، كما تُحاول وصل هذا الإطار العامّ بما تشهده فلسطين اليوم من إبادة جماعيّة مُتواصلة في غزّة منذ ثمانية أشهر، تجاوز عدد شهدائها الأربعين ألفاً. وفي هذا السياق، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ «مؤسسة دلّول» كانت قد اختتمت في منتصف نيسان/ إبريل الماضي، معرضاً مُخصّصاً عن التشكيل الفلسطيني بعنوان «أمير غزّة الصغير»، وهذا ما يُشير إليه تقديم المعرض الحالي. تحضر أبراج المراقبة والكاميرات والأسلاك الشائكة بقوّة في أعمال الفنّانين الفلسطينيَين المشاركين في المعرض؛ مثل جُمانة عبّاس وعامر شوملي وعبد الرحمن قطناني وميشال حلّاق، وأغلبها مشغولة بين عامَي 2010 و2024، وتمثّل واقعاً مُحتلاً تطغى عليه مفاهيم السيطرة الاستعمارية التي تُجرِّئ الأجساد المقاومة وتنبشُ في خصوصيّة الأمكنة.

كذلك يحضر اللّاجئون السوريّون في مجموعة أعمال لساندار عيسى، أنجزتها عام 2013، وفي أحدها نرى طفلاً يعبر من ضفّة إلى أُخرى فوق خشبة هشّة وتحتها فجوة عميقة. بينما يقدّم التشكيلي اللبناني أيمن بعلبكي عدّة أعمال من بينها «مسرح بيكادبللي» (2019)، في إشارة إلى المسرح الذي كان أبقونة فنّية وثقافية قبل أن يحترق عام 2000، وقد أُعلِن عن نيّة ترميمه مراراً دون تنفيذ؛ وعملاً تحتيّاً آخر أنجزه هذا العام بعنوان «المُلثَّم»، في استكمال للوحته الشهيرة التي سحبتها دار «كريستيز» من مزاد في لندن في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي. ومن التيمات اللبنانية التي تُطالعنا في المعرض، أيضاً، الأزمة المالية وزمن الانهيار الذي يعيشه البلد منذ 2019، حيث تصوّر ياسمينة نيستين متظاهرين يُحطّمون واجهة أحد المصارف، ويقترح هادي سي على عملة الدولار فئة جديدة هي «الصفر»، في عمل له بعنوان «الخوارزمي»، كما يوجّه تحية في «صحافة» (2022) إلى روح المراسلة الشهيدة شيرين أبو عاقلة. من الفنّانين الآخرين المُشاركين في المعرض: حسين شريف، وسلطان بن فهد، وياسمينة هلال، وساندرا عيسى، وعلا الجريدي، ومحمد سعيد بعلبكي، وعمر اللهيب، وسليم معوّض، ومحمد أحمد إبراهيم، وياسمينة نيستين، ومروان شمّاع، وسارة أبو مراد، والفريد طرزي، وزياد عنتر، وخالد حوراني، ومهى ملّوح، وكاتيا طرابلسي، وليلى جبر جريديني، ومحمد أحمد إبراهيم، ويوسف نبيل، وفؤاد الخوري، وجوزيف الحوراني، وعبد الرحمن قطناني، ورانيا مطر، وماندي الصايغ، وعناية هديب.

أعمال تعكس الواقع العربي في العقد الثاني من الألفية الثالثة

يضمّ المعرض أعمالا لأكثر من ثلاثين فنّانا عربيّا

## فعاليات

تعرض منصّة «أفلامُنا»، ابتداءً من التاسع عشر من يونيو/ حزيران الجاري، الفيلم الوثائقي **إمبراطور النمسا** (2016) للمخرج اللبناني **سالم مراد**. يتناول الشريط (ساعة و43 دقيقة) قصّة علاقة معقّدة بين ابن وأبيه في ظلّ ظروف جديدة تطرأ وتجعل الأب يُعيد النظر في حساباته، ولا سيّما بعد صدور قرار بهدم منزل العائلة.

حتى الثلاثين من الشهر الجاري، يستمرّ في «المركز الثقافي الإسباني» بالعاصمة المكسيكية معرضٌ جماعي بعنوان **ما ليس له اسم**. يُشارك في المعرض ثلاثة عشر فنّاناً من المكسيك واسبانيا وتشيلي وغواتيمالا، تُعبّر أعمالهم عن السياسات العالمية التي اسهمت في قتل البشر والحجر، وتسريع التوتّرات، وانشاء الحدود، وخلق الصراعات والمجاعات والإبادات الجماعية.

يختتم، بعد غدٍ الاثنين، في غاليري «Mission Art» ببيروت، معرض **شخصية** للتشكيلي والنحّات السوري **لطفي رمحين**. بين الخشب والرخام والمعادن ومواد أُخرى، يقدّم رمحين أعمالاً ومجسّمات تتميّز بالشخصيات والأشكال التي تنبعث من منحنياتها المنسابة، مندفعةً من المواد المتعدّدة رغم تجرّد تفاصيلها.

**مخمل** عنوان أمسية موسيقية يستضيفها «البيت العربي» في قرطبة، عند الثالثة من بعد ظُهر اليوم السبت. يقدّم الأمسيةَ العازف الإسباني **خوسيه مانويل توليدا** (الصورة)، وترافقه راقصة الفلامنكو **لوسيا لا برونسي**. يروي العرض سيرة حياة العازف منذ طفولته إلى اليوم، مازجاً بين رقص الفلامنكو واللحن الأندلسي.